

حنكة أبي طالب و ايمانه

<"xml encoding="UTF-8?>



إن المطالع لأحداث ما قبل الهجرة النبوية الشريفة ليجد عشرات الشواهد الدالة على حنكة أبي طالب (عليه السلام).

وخير شاهد نسقه الآن على ذلك، هو ما ذكرناه آنفاً، حيث رأيناه يطلب منهم أن يحضروا صحيفتهم، ويمزج ذلك بالتعريض بإمكان أن يكون ثمة صلح في ما بينهم وبينه.

محتويات [إخفاء]

القبلية وآثارها

ما بعد نقض الصحيفة

وفد من الحبشة

من مواقف أبي طالب

مع تضحيات أبي طالب عليه السلام

سؤال وجوابه

عام الحزن

الحب في الله والبغض في الله

وما ذلك إلا من أجل أن لا تفتح الصحيفة 1 إلا علينا، يراها كل أحد، وأيضاً حتى يهيمهم للمفاجأة الكبرى، ويمهد السبيل أمام طرح الخيار المنطقي عليهم، ليسهل عليهم تقبيله، ثم الالتزام به، ولاسيما إذا استطاع أن ينزعز منهم وعداً بما يريد، ويضعهم أمام شرف الكلمة، وعلى محك قواعد النبل واحترام الذات، حسب المعايير التي كانوا يتعاملون على أساسها..

وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد، حتى ليصبح الناس: أنصفتنا يا أبي طالب. ثم تبرز لنا من النصوص المتقدمة حقيقة أخرى، لها أهميتها وانعكاساتها، وهي تدل على مدى ثقة أبي طالب بصدق النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وبسداد أمره، وواقعية ما جاء به، حتى قال: إن ابن أخي حدثني ولم يكذبني قط..

وكان يتأنم جداً من اتهام ابن أخيه بالسحر والكهانة، ويعتبر ذلك افتراء ظاهراً، ويغتنم الفرصة السانحة للتعبير عن خطل رأيهم، وسفه أحلامهم، فيقول لهم: (أتبيان لكم: أئنا أولى بالسحر والكهانة؟!) وكانت النتيجة: أن أسلم بسبب هذه المعجزة يومئذ عالم من الناس.

القبلية وأثارها

وقد لاحظنا فيما سبق: أن القبلية قد ساعدت إلى حد ما في منع الكثير من الأحداث التي تؤثر مستقبلياً على الدعوة ونجاحها.

ول يكن ما قام به هؤلاء الذين عملوا على نقض الصحيفة هو أحد الشواهد على ذلك. ولكن الذي يلفت نظرنا هو: أننا لا نرى أبا لهب فيمن قام في ذلك أو ساعد عليه. كما أنها لا نجد أثراً لابن عم خديجة حكيم بن حزام، الذي تدعى الروايات!! أنه كان يرسل الطعام لهم وهم محصورون في الشعب.

وأيضاً لا نجد مكاناً لأبي العاص بن الربيع الأموي (!!)، الذي سوف يأتي حين الكلام على أسطورة تزويج الإمام علي (عليه السلام) بbuilt أبي جهل أنهم يدعون (!!): أن النبي (صلى الله عليه وآله) أثني على صهره!! تعرضاً بعلي الذي لم يكن يستحق إلا التقرير والتعرير (!!). علي الذي كان يخاطر بنفسه، ويأتي لهم بالطعام من مكة، ولو وجدوه لقتلوه، كما تقدم.

ما بعد نقض الصحيفة

واستمر الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) يعمل على نشر دينه، وأداء رسالته، واستمرت قريش تضع في طريقه العارقين، وتحاول أن تمنع الناس من الاجتماع به، والاستماع إليه، بكل الوسائل التي تقع تحت اختيارها، والنبي

(صلى الله عليه وآله) يتحمل ويصبر، لا يكل ولا يمل، ولم تفلح قريش في ذلك، ولا وصلت إلى نتيجة، والأحداث التي في هذا السبيل كثيرة، لو أردنا استقصاءها لطال بنا المقام، ولا محيس لنا عن تجاوزها إلى غيرها، وإن كان يعز ذلك علينا.

وفد من الحبشة

وقدم على النبي الأعظم الأكرم (صلى الله عليه وآله) أول وفد من خارج مكة، وبالذات من الحبشة، ومن النصارى، وقيل: من نجران، وكان يتألف - على قول ابن إسحاق وغيره - من عشرين رجلاً، وقيل غير ذلك، وكان على رأس الوفد جعفر بن أبي طالب (رحمه الله) 2.

فوجدوا النبي (صلى الله عليه وآله) في المسجد الحرام؛ فكلموه، وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، وبعد دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله) لهم إلى الإسلام آمنوا وصدقوا، فلما قاموا، اعترضهم أبو جهل، وعنفهم على إسلامهم، وتركهم دينهم؛ فقالوا: سلام عليكم، لا نجهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألف أنفسنا خيراً؛ فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ 3، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا الْلُّغُوْ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِيَّنَ﴾ 4.

وكانت هذه - بطبيعة الحال - ضربة قاسية لقريش وكباريائها، وخطتها وأهدافها، وخصوصاً إذا كان ذلك الوفد قد جاء من الحبشة، وبالخصوص بقيادة جعفر (عليه السلام) فإن ذلك يعني: أن الدعوة قد بدأت تأخذ طريقها إلى القلوب في مناطق لا تخضع لقريش، وسلطانها، ونفوذها. كما أنه إنذار لها بلزم التحرك بسرعة قبل أن يفوت الأوان.

ولكن كيف؟ وأني؟. وهذا أبو طالب، ومعه الهاشميون والمطّلبيون يمنعون محمدًا ويحوطونه، فلا بد إذن من الانتظار.

من مواقف أبي طالب

وكان أبو طالب شيخ الأبطح (عليه السلام) هو الذي حامي وناصر النبي (صلى الله عليه وآله)، وحدب عليه منذ طفولته، وحتى الآن: فقد نصره بيده ولسانه، وواجه المصاعب الكبيرة، والمشاق العظيمة في سبيل الدفع عنه، والذود عن دينه ورسالته، وإعطائهما الفرصة للتوسيع والانتشار، ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وهو أيضاً الذي كان يقدمه على أولاده جميماً، وقد أرجعه بنفسه من بصرى إلى مكة عندما حذره بحيرة من اليهود عليه (صلى الله عليه وآله).

نعم، وهو الذي رضي بعداء قريش له، وبمعاناة الجوع والفقر، والنذل الاجتماعي، ورأى الأطفال يتضاغون جوعاً، حتى اقتاتوا ورق الشجر، بل لقد عبر صراحة: عن أنه على استعداد لأن يخوض حرباً طاحنة، تأكل الأخضر واليابس، ولا يسلّم محمدًا لهم، ولا يمنعه من الدعوة إلى الله، بل هو لا يطلب منه ذلك على الأقل.

وهو الذي يقف ذلك الموقف العظيم من جبارة قريش وفراعنتها، حينما جاءه النبي (صلى الله عليه وآله) - وقد ألقى عليه قريش سلا ناقة - فأخذ (رحمه الله) السيف، وأمر حمزة بأن يأخذ السلا، وتوجه إلى القوم، فلما رأوه مقبلًا عرضاً الشر في وجهه، ثم أمر حمزة أن يلطم سبالهم، واحداً واحداً، ففعل 6.

وفي نص آخر: أنه نادى قومه، وأمرهم بأن يأخذوا سلاحهم؛ فلما رأه المشركون أرادوا التفرق؛ فقال لهم: (ورب البتّة، لا يقوم منكم أحد إلا جلته بالسيف)، ثم وجأ أنف من فعل بالنبي ذلك حتى أدمها - وفاعل ذلك هو ابن الزيعرى - وأمر بالفرث والدم على لحائهم 7.

وفي الشعب كان يحرس النبي (صلى الله عليه وآله) بنفسه وينقله من مكان إلى آخر. ويجعل ولده علياً (عليه السلام) في موضع النبي (صلى الله عليه وآله)، حتى إذا كان أمر، أصيب ولده دونه وقد خاطب (رحمه الله) في هذه المناسبة علياً (عليه السلام) بأبيات معبرة.

وأجابه علي (عليه السلام) بمثلها 8 فلترراجع.

وكان يدفع قريشاً عنه باللين تارة، وبالشدة أخرى، وينظم الشعر السياسي، ليثير العواطف، ويدفع النوازل، ويهيء الأجواء لإعلاء كلمة الله، ونشر دينه، وحماية أتباعه.

وقد افتقد النبي (صلى الله عليه وآله) مرة (فلم يجده؛ فجمع الهاشميين، وسلحهم، وأراد أن يجعل كل واحد منهم إلى جانب عظيم من عظماء قريش ليفتلك به، لو ثبت أن محمدًا أصابه شر) 9.

كل ذلك في سبيل الدفع عن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ورفع شأنه.

وواضح: أن الإمام بكل مواقف أبي طالب، وتضحياته الجسم يحتاج إلى وقت طويل، وجهد مستقل ونحن نكتفي بهذه الإشارة، ونعترف أننا لم نقض حقه كما ينبغي وذلك من أجل أن نوفر الفرصة لبحوث أخرى في السيرة النبوية الشريفة.

مع تضحيات أبي طالب عليه السلام

مما تقدم يظهر أن أبو طالب، شيخ الأبطح، كان قد:

تخلى حتى عن مكانته في قومه، إلى بديل آخر هو في الاتجاه المضاد تماماً، وهو العداء لهم، وسائر أهل بلده، بل والدنيا بأسرها، بل هو يتحمل النفي والنبذ الاجتماعي له، ولكن من يلوذ به، ولا يستسلم للضغوط المتنوعة التي يتعرض لها، ولا تلبي قناته، ولا تتصدع صفاته.

رضي بتحمل الجوع والفقر والمحاصرة الاقتصادية، بل هو يبذل أمواله وكل ما لديه في سبيل هذا الدين.

وطّن نفسه على خوض حرب طاحنة، ربما تنتهي بإبادة الهاشميين وأعدائهم، إذا لزم الأمر.

ضحي حتى بولده الأصغر سناً علياً (عليه السلام) وتحمل آثار غربة ولده الآخر جعفر، المهاجر إلى الحبشة.

جاهد بيده ولسانه، واستخدم كل ما لديه من إمكانات مادية ومعنوية، ولا يبالي بالصعاب والمشاق كافة، وهو يدافع عن هذا الدين، ويحوطه بالرعاية والعناية، ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

سؤال وجوابه

ويرد سؤال، هو: لماذا لا يكون ذلك كله بداعع عاطفي، ونابعاً عن حمية النسب والقبيلة؟! أو على حد تعبير البعض: بداعع من (حبه الطبيعي)؟ 10.

وجوابه:

1 - ما يأتي من أدلة قاطعة على إيمان أبي طالب عليه الصلاة والسلام ولا سيما أشعاره وتصريحاته الدالة على ذلك، هذا بالإضافة إلى ما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآلـه) وعن الأئمة (عليهم السلام) من ولده في ذلك..

2 - يؤيد ذلك أنه إذا كان محمد (صلى الله عليه وآلـه) ابن أخيه ؛ فإن علياً (عليه السلام) ولده، فلو كانت العاطفة النسبية هي الدافع، فلماذا يضحي بولده دون ابن أخيه، طائعاً مختاراً، بعد تفكير وتأمل وتدبر لعواقب ذلك؟ ولماذا يرضي بأن يكون الاغتيال - لو تم - موجهاً له دونه؟! أم يعقل أن يكون حبه الطبيعي لابن أخيه أكثر منه لولده، فلذة كبده؟!.

3 - لو كانت الحمية القبلية، والرابطة النسبية، هي السبب في موقفه ذاك، فأولاً: لماذا لم تدفع أبا لهاب لعنه الله لأن يقف أيضاً موقف أبي طالب (عليه السلام) ؛ فيدفع عن النبي (صلى الله عليه وآلـه)، ويضحي في سبيله ؛ حتى بولده، وبمكانته، وبكل ما يملك؟!. بل لقد رأيناه من أشد الناس على النبي (صلى الله عليه وآلـه)، وأكثراهم جرأة عليه، وإيذاء له.

وأما سائر بني هاشم فإنهم وإن دخلوا الشعب مع النبي (صلى الله عليه وآلـه) إلا أن تضحياتهم في سبيل النبي لم تبلغ عشر معاشر تضحيات أبي طالب، كما أنهما وقفوا هذا الموقف تحت تأثير نفوذ أبي طالب، وإصراره.. بل لماذا يدفع الحب الطبيعي أبا طالب للتضحية بولده علي، وبإخوته، بل بسائر بني هاشم في سبيل ابن أخيه؟!. وهكذا يتضح: أن حمية الدين أقوى من حمية النسب، ولذلك نرى المسلمين يصرحون بأنهم على استعداد لقتل آبائهم وأولادهم في سبيل دينهم.

وقد استأذن عبد الله بن أبي رسول الله (صلى الله عليه وآلـه) بقتل أبيه 11.. وفي صفين أيضاً لم يرجع الأخ عن أخيه حتى أذن له أمير المؤمنين (عليه السلام) بتركه 12 وقد قتل أهل الكوفة إخوانهم وأبناءهم حين أصبحوا خوارج 13 إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة.

4 - ثم إنه لو كان أبو طالب يفعل ذلك من أجل الدنيا؛ فقد كان يجب أن يضحي بابن أخيه دون ولده، ويضحي به دون عشيرته؛ لأنه يحصل على الدنيا من هذا الطريق؛ كما قتل المأمون أخاه، وسممت أم الهايدي ولدها، لأن يضحي بكل شيء دونه، ويصر على ذلك حتى لو كانت النتيجة هي: خوض حرب تؤدي إلى قتله وجميع من معه من أهل وأحبة، فإن هذا لا يصح في منطق المصالح الدنيوية بأية صورة على الإطلاق.

5 - وأيضاً، فإن الحمية القبلية - لو كانت - فإنما تؤثر أثراً في حدود مصالح القبيلة، والحفاظ على شؤونها، ومستقبلها أما إذا كانت هذه الحمية سبباً في تدمير القبيلة والقضاء عليها، وتعطيل مصالحها، وتعریض مستقبلها للأخطار الجسام ؛ فإن هذه الحمية لا يمكن أن يفسح لها المجال، ولا أن يظهر لها أثر لدى عقلاً الرجال.

وهكذا يتضح: أننا لا يمكن أن نفسر موقف أبي طالب (عليه السلام) تلك، إلا على أنها بداعع عقدي وإيماني راسخ، يدفع الإنسان للبذل والعطاء، لكل ما يملك في سبيل دينه وعقيدته.

فصلوات الله وسلامه عليك يا أبا طالب، يا أبا الرجال، ويا رائد قوافل التضحية والفاء، في سبيل الحق والدين، ورحمة الله وبركاته.

عام الحزن

وفي السنة العاشرة منبعثة كانت وفاة الرجل العظيم، أبي طالب عليه الصلاة والسلام، فقد النبي (صلى الله عليه وآله) بفقد نصيراً قوياً، وعزيزياً وفياً، كان هو الحامي له، والداعع عنه، وعن دينه، ورسالته، كما أشرنا إليه. ثم توفيت بعده بمنة وجيزة - قيل: بثلاثة أيام، وقيل بعده بحوالي شهر 14 خديجة أم المؤمنين صلوات الله وسلامه عليها، أفضل أزواج النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وأحسنها سيرة وأخلاقاً مع النبي (صلى الله عليه وآله)، وقد كانت بعض نساء النبي (صلى الله عليه وآله) (وهي عائشة) تغافل عنها غيره شديدة، كما سنرى، رغم أنها لم تجتمع معها في بيت الزوجية، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) قد تزوجها بعد وفاة خديجة بزمان 15. ونستطيع أن نعرف: كم كان لأبي طالب، ولخديجة (عليهما السلام) من خدمات جلّي في سبيل هذا الدين من تسمية النبي (صلى الله عليه وآله) عام وفاتهما بـ: (عام الحزن) 16.

الحب في الله والبغض في الله

ومن الواضح: أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن ينطلق في حبه لهما، وحزنه عليهما من مصلحته الشخصية، أو من عاطفة رحمية، وإنما هو يحب في الله تعالى، وفي الله فقط.

ويقدّر أي إنسان، ويحزن لفقد، ويرتبط به روحياً وعاطفياً، بمقدار ارتباط ذلك الإنسان بالله، وقربه منه، وتفانيه في سبيله، وفي سبيل دينه ورسالته.

أي أنه (صلى الله عليه وآله) لم يتأثر على أبي طالب وخدية؛ لأن هذه زوجته وذاك عمه. وإلا فقد كان أبو لهب عمه أيضاً، وإنما لما لمسه فيهما من قوة إيمان، وصلابة في الدين، وتضحيات وتفان في سبيل الله، والعقيدة، وفي سبيل المستضعفين في الأرض ولما خسرته الأمة فيهما، من جهاد وإخلاص قلّ نظيره في تلك الظروف الصعبة والمصيرية.

وقد ألمح النبي (صلى الله عليه وآله) إلى ذلك حينما جعل موت أبي طالب وخدية مصيبة للأمة بأسرها، كما هو صريح قوله في هذه المناسبة: (..اجتمعت على هذه الأمة مصيّباتان، لا أدرى بأيهما أنا أشد جزاً) 17. نعم، وذلك هو الأصل الإسلامي الأصيل، الذي قرره الله تعالى بقوله: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادِونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ 18 وهل ثمة محادة لله ولرسوله أعظم من الشرك، الذي عبر الله عنه بقوله: ﴿ ... إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ 19 و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ... ﴾ 20؟!.

والآيات والروايات التي تؤكد على الحب في الله والبغض في الله كثيرة تفوق حد الحصر في عجالة كهذه. وعلى هذا الأساس قال الله تعالى لنوح عن ولده: ﴿ ... إِنَّهُ لَنَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ... ﴾ 21.

وقال تعالى حكاية لقول إبراهيم (عليه السلام): ﴿... فَمَنْ تَبَعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي...﴾ 22 وعلى هذا الأساس أيضاً كان سلمان الفارسي من أهل البيت.
قال (صلى الله عليه وآلـه): سلمان من أهل البيت 23.
وقال أبو فراس:

كانت مودة سلمان لهم رحماً ** ولم تكن بين نوح وابنه رحم 24.

1. اي الصحيفة التي كتبت فيما بين قريش وبني طالب، في شعب ابى طالب.
2. كذا قال البوطى في فقه السيرة ص126 ومجمع البيان ج7 ص258 ويفهم منه أنهم قدموا مع جعفر حين قدومه نهائياً عام خبير.
3. القران الكريم: سورة القصص (28)، الآية: 52، الصفحة: 392.
4. القران الكريم: سورة القصص (28)، الآية: 55، الصفحة: 392.
5. وراجع الحديث في سيرة ابن هشام ج2 ص32، وتفسير ابن كثير، والقرطبي، والنيسابوري في تفسير الآيات، والبداية والنهاية ج3 ص82.
6. الكافي نشر مكتبة الصدوق ج1 ص449 ومنية الراغب ص75 وراجع السيرة الحلبية ج1 ص291 و292 والسير النبوية لدحلان مطبوع بهامش الحلبية ج1 ص202 و208 و231 والبحار ج18 ص259.
7. راجع: الغدير ج7 ص388 و359 وج8 ص3 - 4 وأبو طالب مؤمن قريش ص73 كلاهما عن العديد من المصادر وثمرات الأوراق ص285 و286 ونزهة المجالس ج2 ص122 والجامع لأحكام القرآن ج6 ص405،406 وتأريخ اليعقوبي ج2 ص24 و25.
8. المناقب لابن شهرآشوب ج1 ص64 و65 وأنسى المطالب ص21 ولم يصرح باسم (علي) وكذا في السيرة الحلبية ج1 ص342 وراجع البداية والنهاية ج3 ص84 والسير النبوية لابن كثير ج2 ص44 ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج2 ص312 وتأريخ الإسلام ج2 ص140 و141 والغدير ج7 ص363 و357 وج8 ص3 و4 وأبوطالب مؤمن قريش ص194.
9. قد مر ذلك في أثناء الحديث عن الإسراء والمعراج، راجع: تاريخ اليعقوبي ج2 ص26. أبوطالب مؤمن قريش ص171 ومنية الراغب ص75 و76 والغدير ج2 ص49 و350 وج3.
10. تفسير ابن كثير ج3 ص394.
11. تفسير الصافي ج5 ص180 والسير الحلبية ج2 ص64 والدر المنثور ج6 ص24 عن عبد بن حميد، وابن المنذر والإصابة ج2 ص336.
12. صفين للمنقري ص271 و272.
13. راجع: كتابنا: علي والخوارج ج2 ص77 فما بعدها.
14. السيرة الحلبية ج1 ص346 والسير النبوية لابن كثير ج2 ص132 البداية والنهاية ج3 ص127 والتنبيه والإشراف ص200.

15. البداية والنهاية لابن كثير ج 3 ص 127 - 128 والسيرة النبوية لابن كثير ج 2 ص 133-135 صحيح البخاري ج 2 ص 202 وكتاب عائشة للعسكري ص 46 فما بعدها. وقد ذكرنا بعض المصادر لذلك في ما يأتي في فصل: حتى بيعة العقبة، حين الكلام حول جمال عائشة وحظوظها.
16. سيرة مغلطاي ص 26 وتاريخ الخميس ج 1 ص 301 والمواهب اللدنية ج 1 ص 56 والسيرة النبوية لدحلان ج 1 ص 139 ط دار المعرفة وأسني المطالب ص 21.
17. تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 35 ط صادر.
18. القرآن الكريم: سورة المجادلة (58)، الآية: 22، الصفحة: 545.
19. القرآن الكريم: سورة لقمان (31)، الآية: 13، الصفحة: 412.
20. القرآن الكريم: سورة النساء (4)، الآية: 48، الصفحة: 86.
21. القرآن الكريم: سورة هود (11)، الآية: 46، الصفحة: 227.
22. القرآن الكريم: سورة إبراهيم (14)، الآية: 36، الصفحة: 260.
23. مصادر هذا الحديث مذكورة في كتابنا سلمان الفارسي في مواجهة التحدي.
24. الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملی، المركز الإسلامي للدراسات، الطبعة الخامسة، 2005 م. - 1425 هـ. ق، الجزء الثالث.